أطياف من سيرتهم

العقاد ـ لطفي السيد ـ ابراهيم ناجي ـ مصطفى صادق الرافعي
خليل مطران ـ أحمد رامي ـ مي زيادة ـ بنت الشاطىء

تأليف

طاهر الطناحي

الكتاب: أطياف من سيرتهم

الكاتب: طاهر الطناحي

الطبعة: ٢٠١٩

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣



E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

الطناحي ، طاهر

أطياف من سيرتهم / طاهر الطناحي

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٥٧ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولى: ٣ – ٩٣٣ – ٤٤٦ –٩٧٧ –٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٥٤٨٦ / ٢٠١٩

أطياف من سيرتهم





تقديم

يضم هذا الكتاب فصولا متنوعة كتبها الأديب الراحل طاهر الطناحي، وهي في الأصل مقالات نشرها صاحبها في الصحف والمجلات ولم يضمها معا بين دفتي كتاب، وقد جمعناها وننشرها الآن لنصنع صنيع الكاتب نفسه، فقد كان صديقا للأديب العصامي الأشهر عباس محمود العقاد، وجمع مقالات لم يضمها كتاب للعقاد، ونشرها تحت عنوان " أنا" وكانت حجته أن العقاد حين نشر تلك الفصول المتفرقة عن نفسه إنما كان يصدر فيها عن تصور شامل لكتاب يترجم فيه لنفسه، أو يقدم فيه سيرة حياته ، ومعروف أن العقاد لم يترجم لنفسه في كتاب، فناب عنه الطناحي.كما فعل الصنيع نفسه في كتاب "حياة قلم".

وإذ نُقدم على تجميع مقالات سبق أن نشرها الكاتب الراحل دون أن يضمها معا في كتاب، فإننا لا نحذو حذوه ونسلك مسلكه فقط، بل نتبع سُنة أخرى استنها الطناحي، فقد صاحب الأدباء وأحبهم وكتب عنهم وجمع بعض ما كتب من مقالات في كتب، هكذا كان كتابه "على فراش الموت" الذي صدر لأول مرة في عام ١٩٣٩، وأعاد طباعته في عام ١٩٥١، لكن غير عنوانه إلى "ألحان الغروب" حيث رصد الشخصيات التي ترجم لها في لحظاتها الأخيرة، ومثله أيضا كتابه "الساعات الأخيرة من حياة الأدباء".. أما "حدائق الأدباء" فهو كتاب طريف رسم فيه صورا قلمية لطائفة من الأدباء مشبها كل منهم بحيوان يجتمع معه في صفة ما، لذا أطلق على كتابه " حديقة الأدباء"، فرمز لأحمد لطفي السيد بصورة النسر، ولعائشة عبدالرحمن بصورة البطة المائية،

ولإبراهيم ناجي بالسنجاب ولعبد الرحمن صدقي بالبطريق، وجعل للرمز دورًا في تخيل الشخصية، وإذا كان الرمز بطبيعته لونا من الابهام، فإنه في «حديقة الحيوان» كان شديد الوضوح، فالكل يعرف النسر والكروان وغيرهما، ومما هو جدير بالذكر أن المؤلف جعل كل مترجم في لوحة تصويرية وهو في صورة الطائر أو الحيوان التي خصه بها.

أما العنوان الذي اخترناه " أطياف من سيرتهم" فقد استوحيناه من العنوان الذي اختاره لكتابه عن مي زيادة ، وهو " أطياف من حياة مي"، فهو من خلال كتابته على الشخصية لا يكتفي بسرد أحداث مرتبطة بحياتها، بل يتناول فكر وثقافة الشخصية، ويرصد بعض ملامحها الإنسانية فكأنه يستحضر طيفها ويستعيد روحها، وقبل أن نطل على فصول الكتاب نعرج سريعا على سيرة الكاتب وقلمه.

وُلد طاهر أحمد الطناحي بمدينة دمياط بساحل مصر الشمالي في الحادي عشر من أغسطس عام ١٩٠٢، ، ونشأ بدمياط حيث تلقي تعليمه الأولي بمدرسة أنشاها علي العزبي، وهو شاعر وكاتب وصحفي أنشأ جريدة دمياط، وكانت تربطه علائق قوية بشعراء عصره ومفكريه، توفي في عام ١٩٤٢، وكان طاهر الطناحي بمثابة ابن له ، فتعهده بالرعاية ووجهه وجهة ادبية وتابع كتابته تقويما ونشرا حتى استقام عوده.

بعدها التحق بالمعهد الديني بدمياط وهناك أتم حفظ القرآن الكريم، وتأهل للالتحاق بمدرسة القضاء الشرعي، وانتقل إلى القاهرة ، وقد كان لتلك الثقافة الدينية أثرها في تفكيره وفي كتاباته، وخصوصا الكتب التي قدم لها

بمقدمات ودراسات مثل "دروس من القرآن الكريم" و"الإسلام دين العلم والمدنية" و"رسالة التوحيد" وكلها للشيخ المجدد مُحَّد عبده.

ولم يكتف الشاب الطموح بما حصل من معارف فالتحق بدار العلوم ليدرس اللغة والأدب، فقد تعرف على القاهرة وجوها الأدبي وحضر ندوات وملتقيات لأدبائها وطمح إلى أن يكون واحدا منهم، فبدأ في عام ١٩٢٤ في تأليف قصص رومانسية النزعة، وهكذا نشر سلسلة الليالي التي ضمت اربعة أعمال صدرت كلها خلال عامي ١٩٢٦، ١٩٢٧، وهي "«الليلة الحزينة» و «في ضوء القمر» و «مدرسة سقراط» وغلبت عليها روح الفكاهة، واختتمها بسيرة العاشق «جميل بثينة».

بعدها ترك دار العلوم قبل أن يكمل تعليمه، وهو الأمر الذي ذكره الدكتور مُحَّد رجب البيومي وكان من أصدقائه وزملائه ، بقوله «ولأمر ما ترك دار العلوم قبل أن يظفر بشهادتها العلمية، لأن عمله بالأهرام فدار الهلال قد اتجه به إلى الفضاء المطلق، مادام يملك الموهبة المسعفة والقلم المبين»، وعلى أية حال فإن النجاح والتفوق في الحياة الأدبية والفكرية والفنية ليس وقفا علي الشهادات.

ويُذكر إنه التحق بدار الهلال بتوصية من أحمد حسنين باشا، وقد يكون كل هذا صحيحًا، ومهما يكن من أمر فإنه عمل في دار الهلال منذ عام ١٩٢٧، وكتب المقالات، وأجري التحقيقات الصحفية في مجلاتها الأسبوعية مثل «المصور»، «كل شيء»، «الدنيا» وفي عام ١٩٤٣ تولي تحرير مجلة «الهلال» ثم صار رئيسًا لتحرير سلسلتي «كتاب الهلال» و«روايات الهلال».

ولم يقصر الطناحي قلمه على الصحافة، فاستمر في الكتابة الأدبية شعرا ونثرا، وتراوح شعره بين الغزل خصوصا في سني شبابه وبين الرثاء حينما ولى شبابه وطالت يد الموت خلصائه، أما نثره فقد نهل في قصصه من التاريخ كما في مجموعة «علي ضفاف دجلة والفرات» التي أصدرها في عام ١٩٣٩، و أعاد طباعتها عام ١٩٥٩ تحت عنوان «معارك السيف والقلم"، وانتقى لأحداثها وقائع مما دار في نهايات الدولة الأموية وبدايات الدولة العباسية، وهي نفس الفترة التي يستوحي منها أحداث قصص مجموعته الثانية «نشيد الكروان» الصادرة في عام ١٩٦٧.

أما ترجماته فقد مالت بشكل ملحوظ للشعراء، فله كتاب عن «حياة خليل مطران» صدر في عام ١٩٦٧، قدم فيه ترجمة وافية لمطران منذ مولده وحتى مبينا شخصيته، وتجاربه الإنسانية، وملابسات بيئته وعصره، والوسط الذي عايشه، وعلاقاته بأعلام عصره.

وفي كتابه «صور وظلال من حياة شوقي وحافظ» قدم سيرة تاريخية وأدبية للشاعرين الكبيرين، وفي كتابه «أطياف من حياة مي» كتب عن علاقته بمي زيادة، متحدثا عن صالونها وحياتها، راسما صورة واضحة عما كان يدور بينهما من نقاش، كما ترجم لنفسه في كتاب «ساعات من حياتي» وقد مال فيه لكتابة سيرة فكرية أكثر من السيرة الذاتية الحياتية، فسجلت فصول الكتاب ذكرياته مع العقاد ومُحَمَّد فريد وجدي ومصطفي صادق الرافعي وغيرهم.

أما المقالات المختارة لهذا الكتاب فتستحضر أطياف عشرة من شوامخ الأدباء الذين عاصرهم الكاتب وهم :عباس محمود العقاد، ويبدأ طيفه بأبيات للطناحي تصفه بأنه:

خطيــــبٌ ومنــــبره ســـــاعدٌ   يقلــب عينيــه مثــل الضَــرمْ

لــه مِنســرٌ قاعــدٌ مــا يصــيدُ   وعشــرين في طلَــق لــو هجــمْ

خطيــــبٌ ومنــــبره ســـــاعدٌ   يقلــب عينيــه مثــل الضَــرمْ

يقـــــرط مخلبُـــــهُ أذنَـــــه   ويســـبقُ ناظـــره حيـــثُ أمْ

و تهتم سطور المقال بتفصيل الصورة التي رسمتها الأبيات، وهو النهج نفسه الذي اتبعه الكاتب مع طيف عزيز أباظه، فيقول فيه:

بحـتريُّ اللســان منتخــبُ اللحــن،   يعيــد الخلّــى صــباً عميــدا

كــل حــين، تــراه مــن فــرط شــجو   مبـدعاً في الغنـاء لحنـاً جديـداً

تارة يجعـــــل النشـــــيد قصـــــيداً   ويعيـد القصـيد طـوراً نشـيداً

شـــاقه إلفُـــه وأقلقـــه الوجـــد   فأمســـى بكـــاؤه تغريـــدا

كذلك اتبع نفس الأسلوب في تناوله لشخصية شيخ العروبة أحمد زكي، لكن تناوله لشخصية مي زيادة اختلف، فبدأ من الفقرة الأولى في المزاوجة بين نبوغها وظروفها الصحية والنفسية، وطالت المقالة كثيرا لتحيط بجوانب شخصية مي وبظواهر عصرها وبيئتها، بينما مقالته عن على الجارم كتبها عقب وفاته فجاءت كنوع من الرثاء له، مركزا على مكانته وقيمة إبداعه، بينما مقالاته عن خليل مطران وأحمد رامي ركزت على جانب الشعر في حياته، ولم تكن مي

زيادة السيدة الوحيدة التي عرض لها فكتب كذلك عن بنت الشاطىء وعن أمينة السعيد، وهكذا تعددت الشخصيات وتنوعت بين رجل وامرأة، بين شاعر وناثر، بين أديب وصحفي، وتنوعت رؤى المؤلف لكل منهم، فنظر لكل منهم من منظور مختلف يظهر تميزه، وهذا من أسرار تميز طاهر الطناحي في كل ما كتب.

الناشر

عباس محمود العقاد

خطيـــبٌ ومنـــبره ســـاعدٌ يقلـب عينيـه مثـل الضَـرِمْ

لـه مِنسـرٌ قاعـدٌ مـا يصـيدُ وعشـرين في طلَـق لـو هجـمْ

وفي كـل عضـو لــه أعــينٌ تراصـدُ إن هـو بالصـيد هـمْ

يقـــرط مخلبُــــهُ أذنَـــــه ويســـبقُ ناظـــره حيـــثُ أمْ

تلك هي أوصاف عقاب الجو، وهي أوصاف الأستاذ العقاد، أو هي من أوصافه، فهو ليس خطيباً فقط، بل هو خطيب، وكاتب، وشاعر، ومؤرخ، ومؤلف، وسياسي، واجتماعي، وشاب في الشباب، وشيخ في الشيوخ. وهو مجمع عبقريات، وروح عظيم في نهضة الفكر الحديث. وقد جال في الروحانيات والماديات، وطاف بعقله عوالم الأرض، وصعد بهمته إلى عوالم السماء، حتى كتب عن "الله" واقتحم عالم السدود والقيود، فهتك ما فيه من مخاز وعيوب، وهاجم "الحكم المطلق" وحكامه، وصارع هتلر وأيامه، وكان متنبئاً بعيد النظر صادق النبوءة.

والعرب تصف العقاب بحدة البصر، وتسميه "الكاسر"، وقد كنوه أبا الدهر، وأبا الحجاج، وأبا حسان، وأبا الهيثم. وكان سعد زغلول يسمى الأستاذ العقاد "الكاتب الجبار" فقد كان ولا يزال قوياً في حجته ونقاشه،

جباراً في صراعه وهجومه. ليس له منبر واحد، أو مخلف واحد، بل عشرات ومئات. لو هجم على فريسته، فلا شيء يعصمها من الهول الهائل الذي يدرك الرواسي ويحطم الحصون.

ويضرب الناس المثل بالعقاب في العزة والمنعة، ويقولون "أمنع من العقاب الجو". وإذا شاء الأدباء أن يضربوا المثل في عزة الأديب ومنعته واحتفاظه بكرامته لقالوا: "أمنع من الأستاذ العقاد"، فما عرف يوماً أنه تملق بأدبه عظيماً أو خطيراً ليظفر منه بمكانة أو جاه. وقد كان الاستجداء بالشعر معروفاً حتى أوائل القرن العشرين، ولعله ما زال، فترفع عن ذلك كارهاً، وحفظ للأدب مكانته السامية ومقامه الرفيع.

وقد قيل لبشار بن برد: "لو خيرك الله أن تكون حيواناً، فماذا تختار؟" فقال: "أختار أن أكون عقاباً، لأنه يعيش في قمم الجبال حيث لا يبلغه إنسان ولا ذو أربع، وتحيد عنه كلاب الطير، ولا يعاني صيد الجيف"!...

ويفضل الأستاذ العقاد العزلة والسكنى بعيداً عن الناس، ولا يعاني الصغائر، ولا يهوى ضياع الوقت فيما يضيعه الكثيرون، وخير عنده أن يجلس إلى كتابة أو تأليف أو مطالعة، من أن يقتل الوقت في عبث المقاهي، وتسلية النوادي، وحفلات الكوكتيل والشاي!.. وهو مفكر منتج خصب الإنتاج يحتجز نفسه في صومعته الأيام والأسابيع، ويكاد لا يخرج إلا حين يضطره الخروج، شأن العقبان وسباع الطيور.

والأستاذ العقاد كريم النفس، رقيق العاطفة إلى درجة غريبة، وقد مات صديقه "بيجو"، فحزن عليه حزناً شديداً ورثاه رثاء تزهو به الكلاب على بني الإنسان، رثاه بقصيدة عامرة الأبيات، ورثاه بمقال مسهب بليغ جاء فيه: "صور كثيرة بقيت في خلدي من الإسكندرية كأنها صفحات مقسمة في معارض الفن والحياة والتاريخ، وستبقى ما قدر لها البقاء، وسيكون من أبقاها وأولاها بالبقاء صورة واحدة لمخلوق ضعيف أليف، يعرف الوفاء، ويحق له الوفاء. ذلك هو صديقي "بيجو" الذي فقدناه هناك. وإني لأدعوه "صديقي" ولا أذكره باسم فصيلته التي ألصق بها الناس ما ألصقوا من مسبة وهوان، فإن الناس قد أثبتوا في تاريخهم أنهم أجهل المخلوقات بصناعة التبجيل، وأجهلها كذلك بصناعة التحقير"! ..

وقد قرأ العقاد كثيراً، وألف كثيراً، ودرس الحياة طويلاً، وكون له فيها فلسفة ضمنها كتابه "مجمع الأحياء" الذي وضعه منذ ثلاثين عاماً بعد الحرب العالمية الأولى، ثم أعاد طبعه بعيد الحرب العالمية الثانية، وقد تناول فيه النضال بين الأهواء والمبادئ، واستكناه وجه الحكمة. وأجرى حواره على لسان الحياة والطبيعة والإنسان والحيوان. وقد عقد هذا المجمع في الغابة في قلب إفريقيا حيث الأشجار الباسقات، وفيها من الأحياء ما لا يوجد في أعمر الحواضر عداده، ولا تنتهي على طول الزمن أمداده، كواسر صارخة، وعصافير صادحة، وهوام صافرة، ووحوش زائرة، ودواب زاحفة هادرة، وقد ضرب كل منهم على نغمته، فتألف من لفظها المختلف موسيقى الطبيعة المبدعة، وتناقشت وتجادلت في فحوى الخير والشر

والحياة والموت، وكانت الكلمة في النهاية للطبيعة، والبقاء فيها لكواسر العقبان.

ويختلف الأستاذ عباس العقاد عن العقاب بأنه لا يرحل كثيراً، ولا يسافر من قطر إلى قطر، بل يطوف بفكره وقراءاته في أرجاء العالم، وكأنما رأى وسمع وعرف كل ما فيها ومن فيها. وهو ينقد بفكره الناقد، ونظراته الثاقبة كل أمة من الأمم نقد عالم خبير. أما العقاب، فهو سريع الطيران يفطر في العراق، ويتغدى في اليمن، ويتعشى في مصر. ويرحل كثيراً، ولكنه لا يفقه شيئاً من أمور البلدان، شأن بعض الناس ممن يرحلون ولا يفقهون!

عزيز أباظة

بحتريُّ اللسـان منتخبُ اللحـن يعيـــد الخلّـــى صـــباً عميـــدا
كـل حين، تـراه من فـرط شـجو مبـدعاً في الغنـاء لحنـاً جديـداً
تارة يجعـــل النشـــيد قصـــيداً ويعيـد القصـيد طـوراً نشـيداً
شـــاقه إلفُـــه وأقلقـــه الوجـــد فأمســـــى بكـــاؤه تغريـــدا

ذلك هو عزيز أباظة باشا ، بلبل من بلابل الأشعار، وكناري من نوابغ الكنار، بحتري اللسان، مبدع الغناء والألحان. تتبارى في شعره الأنغام والأناشيد، فلست تعرف أيها النشيد وأيها القصيد؟ .. وهل تغريده بكاء أم بكاؤه تغريد؟

هو ساجع صداح، يؤثر الليل كما يؤثره هذا الطائر الجميل، فلا تسمعه بين الناس داعياً لنفسه بغنائه وموسيقاه، بل يدع الناس يستمعون إليه ويتزاحمون عليه ويرتدون الليل ساهرين، يمتعون أنفسهم وأرواحهم بما يبدع من فن رائع وأدب رفيع.

قال الشعر منذ العاشرة من عمره، ولم يعرف بالنبوغ إلا في كهولته؛ فتبوأ مكانه في الطبقة الأولى من شعراء العربية، واشتهر بلا جهد في الشهرة ولا جهاد. وفرضت قدرته نفسها على تقدير الناس، وإذا هو

ينهض من فراشه – على حد تعبير اللورد بيرون – فيرى نفسه ذائع الصيت مشهوراً!.. وكان من قبل منطوياً على نفسه، يقول الشعر ويتغنى به في أوقات فراغه بعيداً عن الأنظار. وكأنما يخشى نقد الناقدين، أو يستحي أن يعرف بما لا ينبغي أن يعرف به الشعراء النابغون. فآثر الخمول والانطواء، حتى كانت القارعة في وفاة زوجته الحبيبة إلى قلبه وروحه، فانبعثت ملكته الشاعرة بتلك "الأنات الحائرة"؛ فدوت بين القلوب والأسماع، وعرفت على قلة ما طبع منها في جميع البقاع:

فقـــدتها خِلـــةً الـــنفس كافيـــة   تكـاد تغـني غنـاء المـاء والـزاد

يا أخت ذي الرونق الموشىّ من عمري   وعدل نفسي من الدنيا وأولادي

قـد ذقـت بعـدك بينمـا حزّ في كبـدي   وذاتـه في ربيـع السـن أكبـادي

وقد كان من قبل سعيداً بهذه الزوجة، هنيئاً بحياته الزوجية، ثم رزئ فيها هذا الرزء الجسيم، فأثارت ملكته المكبوتة، فإذا هي تئن، ثم تنوح، ثم تصيح، وإذا الناس يلتفتون إلى هذا الزوج الثاكل المكلوم، وإذا هو أعظم من زوج، وأعظم من أخ ورفيق. ولم يكن من المألوف عندهم أن يسمعوا أو يقرءوا لشاعر يرثي زوجته هذا الرثاء الحار البليغ، إذا استثنينا في القدماء جريراً في رثاء خالدة أم أولاده، وابن الرومي في رثائه لزوجته، وفي المحدثين محمود سامي البارودي.

تلفت الناس فإذا هم يرون عزيز أباظة شاعراً ولم يكن لهم عهد أن يروا مديراً شاعراً كبيراً، كأنما الشعر حرام على الإدارة والمديرين. ولكن هذه القارعة ما لبثت أن ألهبت نفسه وروحه، فأخرج "قيس ولبنى" قصة مسرحية وشعراً

تمثيلياً كأحسن ما توضع القصص المسرحية وينظم الشعر التمثيلي. فبلغ الذروة، وجال مع شوقي في هذا المجال.. وكان شوقي أستاذاً له ورائداً، عرفه واتصل به وهو طالب، وتأثر به تأثراً شديداً.

وقد كانت رواية "قيس ولبنى" صدى لوعته وأحزانه لفقد زوجته الوفية، فطالما لمس الناس في فصولها ومشاهدها ألواناً من هذه اللوعة والأحزان، على لسان "قيس" حيث يقول:

كنت في ناعم من الدهر أضحي وعلى مونق من العيش أمسي

بين وشي الهوى، وفي الرئة، ولبنى راحي وروحي وأنسي

أين روضي الذي سقيتُ بدمعي؟ أين ظلي الذي مددتُ وغرسي؟

أين عشٌ فيه ولبنى ولبنى سنوات مرت كليلة عرس

زال عنه هزاره وجفاه فتداعى ما بين يوم وأمس

ولقد كنت أعلم أنه وضع "قيس ولبنى" قبل ظهورها بعدة سنوات، وكان الأدباء من أصدقائه يتناقلون حديثها، ثم ظهرت هذه الرواية فكانت القدرة فيها فوق التقدير، وكان الإعجاب بها فوق الكثرة من المعجبين ، وكانت حجة قائمة – كما كانت روايات شوقي – على أن اللغة الفصحى أصلح في الرواية التاريخية على المسرح الفني الرفيع مما في العامية من

ابتذال وشنشنة وترقيع. ثم جاءت بعدها أخواتها: العباسة، والناصر، وشجرة الدر، فسجلت لمؤلفها النابغ خلوداً في هذا الفن الخالد.

وإذا كان عزيز أباظة باشا لم يصدح في المناسبات الوطنية والاجتماعية بقصائده البليغة فإنه لم يغفل ذلك في رواياته، فقد هز نفوس الجماهير بالإشادة بالحضارة الإسلامية في بغداد، والتغني بالمجد العربي في عرائس الأندلس، ثم هو لم يغفل الأحداث المعاصرة فيقول في رواية "شجرة الدر" عن الوطن والجهاد في سبيل مصر وسبيل الحرية:

وجهادٌ في الله والوطن والمفدى حتى تفوز بالآراب

آزراني نـذب عـن عـرض مصـر　　　يا صـديقي يا رفيقـي شـبابي

ولـتكن آيـة لنـا وشـعاراً　　　مصرُ فوق الأحزاب والأقطاب

علَي الجارم بك

كان أديباً من نوابغ الأدب العربي، وشاعراً من فحوله، وصفيا من أوفى أصفيائه. أخلص للأدب، ووهب حياته لخدمته، وامتزج بروحه ونفسه، فكان أجمل طبعاً، وأصفى نفساً، وأرق شعوراً. وكان الوفاء أبرز ما تحلى به في صناعته، وبين إخوانه وبني قومه، فأحبه عارفوه، وقدره على من طالع آثاره البليغة، وجاب رياض شعره الرائعة، وحظي بما فيها من جمال وجلال.

تعشق الأدب صبياً بفطرته، وكان والده ممن يغرمون بالشعر، ويحفظون الكثير من بدائعه، فترسم خطاه، وأغراه طبعه بالنسج على منواله، فحفظ لكبار الشعراء، وارتاد معالمهم، حتى إذا شب في التعليم دخل دار العلوم، وهي معهد الأدب، ومنتدى الأدباء؛ فكان الطالب النابغ المجلي في سني دراسته، حتى إذا فاز بشهادتها اختير في بعثتها العلمية إلى انجلترا، فأتم دراسته، وعاد مبرزاً فائزاً، فعمل مدرساً بها. ثم اختير مفتشاً بوزارة المعارف، ثم كبيراً لمفتشي اللغة العربية في هذه الوزارة. ولكنه على نبوغه في التربية والتعليم أبت فطرته الأدبية، وملكته الشاعرة إلا أن يكون أديبًا شاعراً، فطغى هذا الجانب فيه على كل شيء سواه، وأصبح في الصف الأول بين أدباء العصر وشعرائه المجيدين.

وقد امتاز – إلى ذلك – بجمال إلقائه، وفصاحة بيانه، وحلاوة صوته الرخيم، فكان إذا أنشد قصيدة ملك من السامعين آذانهم ونفوسهم بلحنه الموسيقي الذي يرجعه ترجيعاً يغمر الجميع بالطرب، في غير لعثمة أو هيبة أو حرج.

وقد ذكرت له يوماً إعجاب الناس بشعره وإنشاده، فقال: "اعتدت حين أنظم الشعر ألا أستعين عليه بالكتابة، بل بالحفظ والترجيع، فإذا خطرت لي الفكرة، وألهمت بيتاً، أخذت أتغنى به حتى إذا ارتحت إلى معناه ومبناه، نظمت غيره وتغنيت به إلى أن تتم القصيدة وقد حفظتها جيداً، فأعيد إنشادها بيني وبين نفسي لأقف على مواضع قوتها وضعفها، فأهذب ما يحتاج إلى تهذيب، وأعود إلى إنشادها مراراً.

"فإذا وقفت في الحفل ألقيها على الحاضرين وقد تمكنت منها، وجدت من إقبالهم على الاستماع إلى شعري ما يثير في نفسي قوة كامنة لا أستطيع التعبير عنها، فأنطلق في إلقائها بترجيع موسيقي، والشعر كما تعلم مقيد بتوقيع وأوزان، فينبغي أن يعطى حقه من النغم والألحان.

"والإلقاء ككل فن من الفنون يحتاج إلى الموهبة النفسية، وإني لا أنكر أن الجانب النظري من الفنون له أثره وفائدته في تهذيب القطرة، وأنه ميزان صحيح توزن به المواهب، وتوجه إلى الاتجاهات المثمرة.

"أما الشعر، فإنه أعصى الفنون على التعلم، وأبعدها عن أن ينال بالدرس والتدرب، بل هو شعاع يضعه الله في قلب من يشاء، وهبة يمنحها لمن يريد،

وحاسة معنوية يختص بها نفراً من خلقه يحسون بها ما لا يحسه غيرهم من الناس، فيترجمونه بياناً ساحراً وقولاً مبيناً".

وقد كان شاعرنا الفقيد كاتباً كبيراً، بليغ الأسلوب، قوي العبارة، وله عدة كتب وقصص نشرت في مناسبات مختلفة، نذكر منها "غادة رشيد" و"الشاعر الطموح" و"فارس بني حمدان" و"مرح الوليد" وغيرها من الآثار الأدبية النفسية. وفد ساهم في التحرير بمجلة الهلال غير مرة. وكتب لها قصة ممتعة بعنوان "الفارس الملثم" لم يتح لنا نشرها في هذا العدد، وسننشرها في عدد قادم. ولم يقعد عن المساهمة في الكثير من الميادين الأدبية والاجتماعية، وأحداث مصر والعروبة. ورثى العظماء والزعماء بأروع القصائد، وكان آخر رثاء له رثاؤه صديقه الشهيد محمود فهمي النقراشي باشا، وكأنما كان يرثي معه نفسه، أو كأنما كان يحس بوداعه هذا العالم وهو يصف الموت الذي اختلسه خلسة مؤثرة حين قال:

والموت أعمى في يديه سهامه ... يرم البرية من وراء سجاف

والموت قد يخفي حماه بنسمة ... هفافة أو في رحيق سلاف

يغشى الفتى ولو اطمأن لموئل ... في الجو أو في غمرة الرجاف

خليل مطران

شيخ الشعراء وشاعر الشباب

بنى العرب فيمَ الصبر والحال ما نرى ويأبى علينا الخســـف تاريخنا قِدما

وحتامَ نطوى العمر، والليـــل دامسٌ ونحتمل الأجحافَ والضيمَ والظلما

هذان البيتان هما مطلع قصيدة وطنية ثائرة، قالها خليل مطران في مقتبل العمر وعنفوان الشباب، وكانت سنه لا تربو على العشرين، وقد تفتحت عن نبوغه الأكمام، وجاشت نفسه بالثورة على أغلال الاستبداد ومذلة الظلم والظلام، ولم يبق الزمن من هذه القصيدة غيرهما، فقد أحرقت فيما أحرق من شعر ونثر يوم طارده وإلى بيروت التركي "علي باشا"، وأراد القبض عليه، وإرساله إلى سجن عكاء. وكان هذا السجن "كالباستيل" مفزعاً، يرتكب بضحاياه أفظع ألوان العذاب. فقد كان الحكم في البلاد العربية وقتئذ فاسداً، يقوم على القسوة والجبروت، واستغلال الرعية أسوأ استغلال؛ فأهاجت هذه المظالم مشاعره، واستثارت نخوته للدفاع عن أمته، وحفز همتها للذود عن كرامتها، والسعي لنيل حريتها وما كان لها من مجد تليد، فنظم هذه القصيدة، ولم ينشرها.. ولكن تنقلها إخوانه، وأذاعوها في مجالسهم ونواديهم. وشاع ذكرها وامتد إلى الوالي، وكان الشاعر "الشاب" مدرساً للغة العربية والفرنسية بالمدرسة البطريركية.

وحدث ذات يوم أن فوجئ بالوالي يدخل المدرسة، ويقتحم حجرة الدراسة، ويسأله عما نظم، وكان قد أحرق أصل القصيدة، فأخذ يهدده وينذره إن هو عاد إلى مثلها، أو سمع بيتاً منها، أو رأى لها أثراً في صحيفة أو كتاب، وأشفق الخليل من أن ينال أسرته اضطهاد أو عقاب بسببه، وأن يتجاوزه إلى أهله وعشيرته. ونهاه والده عن قول الشعر، وقال له: "دعك يا بني من الشعر، وانصرف عن هذه الصناعة فإننا ما وجدنا شاعراً على جلده قميص" ولكنه أبى، وخرج من بيروت فاراً من وجه الضيم والجور، ويمم شطر باريس سنة ١٨٩٢ حيث الحرية والنور، واشترك وقتئذ مع القائمين فيها بالفكرة العربية، وعلم وهو في عاصمة فرنسا أن الجالس على عرش وادي النيل أرسل ليقود هذه الحركة، فبارحها إلى مصر. ودعي لمقابلة الخديو، فسأله عن سبب مجيئه، فأجاب:

– إني شاب يعشق الحرية، وقد علمت بمناقبكم وتقديسكم لها، وتشجيعكم للشباب الحر، فأردت أن أستظل بظل شبابكم الباهر!

من ذلك الحين استوطن خليل مطران مصر، وقضى بها الشطر الأعظم من حياته الحافلة، فقد مضى على إقامته في مصر ثلاثة وخمسون عاماً، وهو الآن شاعرها الأكبر قبل لبنان، وإن كان شاعر القطرين، بل شاعر الأقطار العربية، ولسنا بسبيل البحث في شعره، فهو غني بما يعرفه عنه القراء. ولكنا نذكر هنا أن له شعراً آخر ليس منظوماً ولا مكتوباً، ولا مقولاً يدعوه هو "الشعر العملي"!.

كنت جالساً معه يوماً، فجاء ذكر الشعر، فقال: "لقد أحرقت كل أشعاري التي قلتها في صباي ومقتبل شبابي إلا قصيدة واحدة قلتها في سنة ١٨٨٨ عن معركة "يانا" بين الألمان والفرنسيين، ومطلعها:

مشت الجبال بهم وسال الوادي	ومضوا مهاداً سرن فوق مهادي
يحــدي بهـــم متطوعين كأنهم	عبـــس، ولكـــن الفنـاء الحادي
لله يـــوم قد تقــادم عهـــده	فيــــها، وظل يـــروع كل فؤاد

"وقد مضت على فترة عزمته فيها على الانصراف عن الشعر، ولكني لم أستطع؛ فعدت إليه واتخذته فناً رفيعاً لا مورداً للرزق والتكسب، ونزلت إلي ميدان الحياة العملية واشتغلت بالصحافة والتجارة، ومارست الاقتصاديات، فصرت أصعد وأهبط، وأهبط وأصعد، فهذبتني آلام الحياة ومصاعبها، وصرت أقرب إلى الإيثار والنجدة، ورأيت في نفسي حافزاً على القيام بشعر آخر – شعر حي – شعر عملي، لا خيال فيه، ولا خواطر، ذلك هو مساعدة الناس في السراء والضراء، والشعور بواجب الخدمة للضعفاء والمستضعفين لأنه واجب إنساني"!.

وقد صادق الخليل، فإنه رجل لم يخلق لنفسه فقط، وهو من الشعراء النبلاء الذين لم يعرف عنهم ما يشمين، أو يقف بهم عن موكب السابقين المجلين.

أطياف من حياة الآنسة ميّ

الحياة مد وجزر، وآمال وأحلام، وأفراح وأشجان، وابتسام ودموع.. هكذا هي الحياة، وتلك هي طبيعتها المعمرة المدمرة، المضحكة المبكية، السارة المحزنة، الباسمة الخادعة، الواهبة السالبة، المسالمة المحاربة، الحلوة المرة، التي تذيقنا نشوة خمرتها ثم لا تلبث أن تغصنا بمرارة كأسها وآلامها. وكلنا يتعاطى هذه الكأس ويذوق حلوها ومرها، ويتقلب فيها بين الهناء والشقاء، والعطاء والحرمان!.

كانت الآنسة مي منذ هبطت مصر طفلة تعيش في ظلال أبوين بارين لم ينجبا غيرها، فأودع الله لهما في تلك الابنة الوحيدة من النجابة والنبوغ وشرف السمعة، ما لم يودعه في آلاف من البنين والبنات، فكانت قرة عيونهما، وعزاءهما الوحيد، وفخرهما في الحياة.

عاش الأبوان سعيدين بتلك الابنة النابغة، مغتبطين بما أكسبت جنسها من جمال الأحدوثة، وبما قامت به لقومها من خدمات أدبية مجيدة، وبما أضافته من صفحات ممتازة إلى تاريخ الأدب العربي، وتاريخ المرأة العربية في الشرق الحديث. ثم شاءت الحياة القاسية، المؤلمة المحزنة أن تمد يد الآلام إلى سعادة هذين الأبوين وأن تنقص من هناءة هذه الأسرة الكريمة، لمرض الوالد "الأستاذ إلياس زيادة" مرضاً عضالاً، واشتد عليه

المرض، وزاد من شدته ما كان يصادفه من بعض الشركاء الذين يقاسمونه قطعة أرض في لبنان.

وانقطع الوالد أشهراً في منزله يعاني آلام هذا المرض الوبيل، وقد كان يخفف من آلامه، ويعزيه في مصابه ما يراه من حنان زوجته ورعاية ابنته، وعظيم برها، وفائق فضلها على النهضة الأدبية التي رفعت شأنها وأتاحت لها فخراً لامعاً بين الآداب الأخرى. ولقد كان هذا الفخر جديراً بأن يمد بغبطته وسروره في حياة الأب، لولا أن للعمر نهاية وللأجل غاية، فطوى القضاء آخر صفحة من صفحاته في سنة ١٩٢٩.

كان لوفاة هذا الوالد البار تأثير عظيم في نفس الآنسة مي، فذاقت لأول مرة مرارة الحزن البنوي العميق، وجرعت أول كأس لمأساتها الأخيرة منذ هذا المصاب الأليم، وابتدأت قصتها المؤثرة بهذا الحادث الجسيم. وأطمعت هذه الوفاة "البعض" فيها، فعانت شقاء هذا الطمع، وصاروا يلاحقونها في كل حين حتى ضاقت بهم، وضاقت بالدنيا وسئمت الحياة. وهي في ضيقها الشديد، وسأمها الطويل تصبر ولا تشكو، وتخفي ولا تعلن.

ومرضت والدتها واشتد عليها المرض، فتفاقم الخطب، وتضاعفت الآلام ثم شاء القدر إلا أن ينزل بالكارثة الثانية فتوفيت الأم الحنون، فتجدد حولها طمع الطامعين، فكانت تصرفهم بما عرف عنها من بر وكرم ولطف.

وكان صيف سنة ١٩٣٥ فجاء إليها بعضهم يطالبها بثلاثمائة جنيها، لأن أرضها مرهونة فطلبت أن تطلع على وثيقة الرهن فأطلعوها وضيقوا عليها هذا الطلب. حتى ضاقت بحالها واشتدت آلامها، وهي في شكواها وضيقها لا تصرح لأحد بما يثير في نفسها هذه الآلام. فأصيبت بمرض "الشعور بالاضطهاد"، وجسم بعضهم هذا المرض فكتب إلى أقاربها في لبنان ينبئهم بأن الآنسة مي أصيبت بالجنون! ويوصي بإرسالها إلى مستشفى العصفورية فجاء أحد أقاربها، فوجدها حزينة كئيبة، ضائقة بالدنيا، فطلب منها هذا القريب أن تسافر معه إلى لبنان لتغير الهواء فأبت، فألح عليها كثيراً فقبلت وسافرت معه إلى بيروت ونزلت في داره. وبعد أيام طلبت العودة إلى دارها بمصر، فأبى هذا القريب وأصر على بقائها بلبنان، فأصرت هي على العودة وهددت بالإضراب عن الطعام فلم يأبه لهذا التهديد. ولم يسمح لها بالسفر، فأضربت عن الطعام وبقيت أياماً لا تأكل، فخاطب مستشفى العصفورية في نقلها إليه وهو مستشفى إنجليزي للأمراض العقلية فبعث المستشفى سيارة وممرضة، وحملت إليه.

نزلت الآنسة مي مستشفى المجانين، فما أروع تلك الساعة التي سيقت فيها أديبة الشرق إلى هذا المكان، وما أشد ألمه في النفس وأفظع جرحه في القلوب!

أهكذا الدنيا؟ وهل هذا هو بلاؤها؟ وهذه عجيبتها الرائعة؟

الآنسة مي نابغة نساء الجيل، وفخر الأدب الحديث، التي أهدت إلى العقول ثروة عقلية كبرى، وإلى النفوس جيلاً كاملاً من جمال النفس وسمو الشعور، تنزل بين المجانين، وتسلب من خير ما فاقت به الملايين ما أقبح الحياة، وما أسوأ الدنيا، وما أظلم الأقدار!!

والتفتت الآنسة مي حولها في مستشفى العصفورية، وتأملت حالها في هذا السجن العجيب، وقالت: "أو لم يجدوا لي سجناً أشرف من هذا السجن.. ما أشد قسوة الإنسان على أخيه الإنسان!"

وحرم على الآنسة مي تعاطي السجاير فبقيت تقاسي ألم هذا الحرمان من عادة يصاب المحروم منها بأشد المتاعب والآلام، فبقيت تتوسل وتتلهف لعلها تصيب بهذا التوصل وذاك التلهف قلباً رحيماً يشفق عليها ويثوب إلى الإنصاف فيطلقها من عقالها أو يسمح لها بتعاطي سيجارة واحدة، فلا تجد هذا القلب الرحيم المنصف في ذاك المكان، ولا ترى حولها من الأصدقاء من يعينها في نكبتها أو ينجدها من بلائها أو يسأل عنها في مصابها. وكأنما "مي" التي ملأت مصر وسائر بلاد الشرق أدباً وفضلاً، وشهرة وفخراً، وتزاحمت النفوس على الإعجاب بها، وتغايرت الأسماع والقلوب على الإنصات إليها إذا خطبت أو تحدثت، كأنما مي هذه لا يعرفها إنسان ولا تمر ببال زميل من الأدباء أو أخ من الإخوان. وابتسمت مي، ويئست من الحياة ومن عدالة الإنسان؛ فأضربت عن الطعام، وصممت على الإضراب حتى تموت. وعبثا حاول الأطباء أن يصرفوها عن الإضراب، فأصروا أن يغذوها بالأنابيب من الفم والأنف، ومكثت على

هذه الحال عشرة أشهر، ذاقت فيها أشد الآلام وضعفت بنيتها ونقص وزنها حتى أصبح ٢٨ كيلو جراماً وطلبت الآنسة أن تكشف عليها لجنة من كبار الأطباء فاجتمعت وقررت أن لا شيء بها، وكتب الدكتور مارتان الطبيب الفرنسي تقريراً ضافياً ينفي إصابتها بأي مرض من الأمراض. ولكن إدارة المستشفى رأت أن تستمر في المستشفى مدة أخرى حتى تقوى بنيتها!

عجبت الآنسة من حظها العجيب، واتصل خبرها ببعض عائلات لبنان، وكان عيد الميلاد، فجاء أحد اللبنانيين المقيمين بفلسطين "ليعيد" عند أقاربه ببيروت، ويدعى "الخواجة غانم" وهو من كبار التجار، وفي الطريق مرت به السيارة بالعصفورية، فسأل السائق عما يسمعه عن "الآنسة مي" فأخبره أن إحدى قريباته وهي ممرضة في المستشفى أخبرته أن صحتها جيدة ولا شيء بها. وهي في هذا المستشفى كالمسجون البريء.

وصل "الخواجة غانم" إلى بيروت فاعتزم أن يحدث أقارب الآنسة في إخراجها فقابلهم وذهبوا معه لزيارتها فوجدها جيدة الذاكرة سليمة العقل؛ فخرج من عندها وقد أقسم إلا يعود إلى فلسطين ألا بعد أن تخرج من هذا المستشفى.

بقي "الخواجة غانم" أربعين يوماً يسعى حتى وفق في مسعاه، وخرجت الآنسة مي من المستشفى، ولكن لا إلى بيتها حيث تنعم بالحرية، بل إلى مستشفى للجراحة ببيروت.

سافر "الخواجة غانم" وقد ظن أن الآنسة سوف تبارح هذا المستشفى بعد أيام ريثما يستأجر لها بيتاً خاصاً، كما وعدوه بذلك، لكن لأمر ما لم ينفذ هذا الوعد، وبقيت في مستشفى الجراحة عشرة أشهر أخرى.

احتجت الآنسة مي وأضربت عن الطعام والكلام، أضربت عن الطعام لأنها لا تريد أن تذوق طعام هذه الحياة الملوثة بالآلام، وأضربت عن الكلام لأنها أسفت لعقوق الإنسان. وذات يوم زارها بالمستشفى الأستاذ فلكس فارس، فكان أول شخص رأته من أصدقائها بعد عامين لم تر فيهما صديقاً، ولم تمسك فيهما قلماً، ولم تقرأ كتاباً.. ثم زارها الأستاذ أمين الريحاني، وكان قد جاء من أمريكا فعجب لحالها، وذاع وقتئذ بين جمهور الأدباء في لبنان أن "مي" مسجونة، فانبرت الأقلام تدافع عن قضية مي، وتتساءل: "لماذا تسجن هذا السجن العجيب؟". وذهبت طائفة من الأدباء وأبلغوا النيابة فانتقل النائب العمومي إلى المستشفى وقابلها. وبعد ٤٨ ساعة من مقابلتها جاء إليها مدير البوليس ومعه ستة من الضباط المسلحين واثنان من المساعدين وأخرجها من المستشفى في موكب انتظم فيه عدد كبير من سيارات الأصدقاء والمعجبين.

ووصلت الآنسة مي إلى المنزل الذي أعد لها وقدم لها الغذاء، فتناولته بيدها لأول مرة.. وأمسكت بالشوكة والسكين بعد عامين كاملين لم تتناول بيدها طعاماً ولم تمسك بها شوكة وسكيناً.

وعادت إليها حريتها، واطمأنت في مسكنها برأس بيروت، وسافرت إلى الفريكة فقضت بها بضعة أسابيع وألقت في ذلك الحين خمس سنوات محاضرات ورسمت بريشتها خمسين صورة.

ومرت هذه السنوات الثلاثة الحافلة بآلامها وأشجانها، وفراقها الأليم. وكأنما الأقدار قد ادخرت هذا الحادث لهذه الأدبية لتطلعها على جانب غريب من جوانب الحياة، وتكشف لها من عجائب الإنسان مالا يعرفه عن نفسه الإنسان.

وكنت قد ارتقيت إلى معرفتها سنة ١٩٢٩ وأنا وقتئذ كاتب ناشئ، فأخذت أتردد على بيتها، وأفسحت لي في مجلسها منذ ذلك الحين إلى وفاتها، وكنت جالساً يوما معاً، فقلت لها: أود أن أعرف ما هي أمنيتك الكبرى في الحياة؟

فقالت: "وهل يمكن أن تحوي الحياة أمنية واحدة؟! إن الأماني تتغير مع الوقت، وكل أمنية هي العظيمة، بل هي الواحدة العظمى عندما تقطن جوارحنا وتستولي على كياننا، وهل تصدق أن الإنسان يبوح للناس بأعظم أمانيه؟"

"قد يبوح ببعضها، ولكن الأمنية الكبرى تظل سراً مكتوماً بينه وبين نفسه ولو فقد كل شيء آخر، لبقيت تلك الأمنية رأس ماله الخاص اللاصق لا خفي ما يخفي في قدس أسراره".

"وإذا أبيت إلا أن أبوح بأمنية ما، فهي أن تظل الأماني متجددة في نفسي ما زلت حية، وأن أموت يوم أصبح غير قادرة على التمني"!

وذات مساء من أمسية الآحاد جلست إليها، فجاء حديث شقاء الحياة وسعادتها فقلت لها: وما هي السعادة في رأي الآنسة؟ فقالت، بعد فترة قصيرة داعبت فيها ريشتها التي كانت تكتب بها دائماً وتؤثرها على القلم، هي كما قال ابن الفارض:

صفاء ولا ماء، ولطف ولا هوى ... ونور ولا نار، وروح ولا جسم

ويطرب من لم يدرها عند ذكرها ... كمشتاق نعم كلما ذكرت نعم

على نفسه، فلبيك من ضاع عمره ... وليس له فيها نصيب ولا سهم

ثم نظرت إلى السماء وأغرورقت عيناها بالدموع، وأردت أن أنتقل بها إلى نوع آخر من الحديث، حتى لا تشعر بما كانت تشعر به سوء الحظ، وشقاء النفس، ولوعة القلب، فأشرت بإصبعي إلى لوحة معلقة في مكتبها مكتوبة عليها أبيات بالحبر الذهبي بخط الفنان نجيب هواويني، فقالت: "هذه الأبيات للإمام الشافعي، وهي شعاري في الحياة، ولذلك احتفظت بها على هذه الصورة"، وقامت وقمت معها، ثم تقرؤها بصوت رفيق مؤثر، وهي:

إذا شئت أن تحيا سليماً من الأذى ... وحظك موفور وعرضك صين

لسانك لا تذكر به عورة امرئ ... فكلك عورات وللناس ألسن

وعينـــك إن أبـــدت إليـــك معايبـــا فصنها وقل يا عين للناس أعين

وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى وفارق ولكن بالتي هي أحسن

ثم جلست وقالت إنني أطرب من الشعر الذي يرسم للناس طريق السعادة، ويرشدهم إلى مكارم الأخلاق. ولعل الأدب سمي أدباً، لأنه يهذب الروح ويؤدب النفس ويوجههم إلى اعتناق الآداب الفاضلة. ولهذا دعي الأديب أديباً، وأنا أعتقد أن الأديب الذي يعمل بأدبه كالعالم الذي يعمل بعلمه، والأديب الذي لا يعمل بأدبه كالعالم الذي لا يعمل بعلمه فهو موهوب ولكنه مسلوب.

وقد قضت الفقيدة الخالدة نحو عامين بعد عودتها من لبنان في شبه عزلة لا تسمح فيها إلا بمقابلة القليلين جداً، وكنت أنا من هؤلاء، وقد عادت فأسست منزلها تأسيساً جميلاً، واختارت شقة في عمارة فخمة بقلب القاهرة، وأخذت تكتب وتؤلف. وقد ألفت منذ سافرت إلى لبنان إلى أن توفيت إلى رحمة الله هذه الكتب التي لم تنشر بعد، وهي: "ليالي العصفورية" وهو يحوي وصفاً لما رأته وعانته في مستشفى العصفورية بيروت. "في بيتي اللبناني" وهو وصف لحياتها بعد خروجها من المستشفى وإقامتها في بيت خاص ببيروت. "المتقدون" وهو رواية باللغة الفرنسية. "علاقة فينيقية بمصر" أدب وتاريخ. "مذكراتي" ويحتوي على مشاهداتها وذكرياتها في مصر ولبنان وأوربا، ويتناول كبار العلماء والأدباء الذين عرفتهم والذين كانوا يحضرون مجالس الثلاثاء، وما يدور فيها بينهم من

نقاش وطرائف. ولما قدمت الحرب كتبت رسالة بليغة في فلسفة الحرب بعنوان "رسالة إلى هتلر" نددت فيها بمساوئ الحرب وما تجره على الإنسانية من شقاء ووبال.

وكانت، رحمها الله، تتهم الجنس الخشن بإثارة المنازعات وقيام الحروب، وقالت لي مرة في أحد مجالسها: "إنني أنظر بعين الأسى إلى الأزمة العالمية الحاضرة. وعندي فكرة لإصلاح العالم لو تحققت لزالت الحروب". ثم ابتسمت وقالت: "هذه الفكرة هي أن تقوم في كل دولة "حكومة من الجنس اللطيف" تتألف من أرقي السيدات: علماً وأدباً وخبرة بالشئون السياسية والاقتصادية والاجتماعية". "فإنكم معشر الرجال جربتم كل أنظمة الحكم، فلم تفلحوا، بل آثرتم المنازعات، وأشقيتم الشعوب بالحروب، على الرغم من أنكم أبدعتم في كل علم وفن، وبرعتم في عقد المعاهدات، وتدوين الشروط التي تقيد حرية الأمم، ونبغتم في إقامة الحصون، وحشد الجيوش، واختراع أسلحة القتال، ولكنكم فشلتم في الوصول إلى أحسن طريق للتفاهم. نعم فشلتم يا معشر الرجال، وجربتم النظام بعد الآخر فلم تجلبوا للأمم غير الشقاء. فهل تسمحون أن تجربوا الحكومات النسائية فإنني أراها أقرب إلى تحقيق السلام، وأحرص على حقن الدماء".

وقبل مرضها الأخير بقليل كنت أزورها ذات ليلة فلمحت في وجهها شيئاً من التفكير الحزين، وفي حديثها رنين الاكتئاب والجزع. ثم سألتني: "هل تعرف تفسير الأحلام؟" قلت: "ولماذا هل رأيت حلماً؟" قالت: "إني

رأيت حلماً مؤلماً ، وقد نهضت من نومي حزينة خائفة" فقلت: "وما هو هذا الحلم؟" قالت: "رأيت ليلة أمس سيدة مقبلة علي ملتحفة بالسواد، فلم أتبين من هي، حتى إذا اقتربت مني صرخت قائلة "أمي!"، فبكت، ثم أقبلت نحوي تضمني إلى صدرها وتبكي، فبكيت لبكائها، وقلت: "مالك يا أمي" فأجابت: "آه يا عزيزتي مي!" فقلت: "سأموت يا أمي؟" فلم تجبني. واستيقظت من نومي فازعة من هذه الرؤيا، فهي أول مرة أرى فيها والدتي بعد موتها، وقد شغلت بها حتى الآن بل تشاءمت، واعتقدت إما أني سأموت قريباً، أو أن يصيبني مرض شديد".

قصت مي هذه الرؤيا، وتقاطرت الدموع من عينيها، ثم استجابت لما عرف عنها من شجاعة وتجمل، وقالت: "وهل عهدتني من الجبناء؟. إني لا أخاف الموت ولا أخشاه، إن وراء الموت وجود غير ملموس يدعى السعادة وإني لا أشعر باحتياج محرق إلى التعرف إليها والتمتع بها". فقلت لها: "مثلك من أعطى روحاً عالياً، وأدباً خالداً لن يموت. ولكني أشفق من أن تسيطر عليك الأوهام!". قالت: "إنني لا أخدع بالأوهام، غير أني لا آمن من صروف الأيام، فهل تسمح أن تبحث لي عن تأويل رؤياي؟".

فأخذت أطمئنها، ولكنها ألحت أن أستشير خبيراً بتفسير الأحلام فوعدتها وذهبت أفكر فيما عسى أن أعود به إليها في الأسبوع التالي، وكنت أزورها كل أسبوع مرة، ثم اخترت لها تأويلاً طريفاً، فلم يخف على ذكائها أنني أصانعها لأدخل على نفسها التفاؤل والاطمئنان.

أحمد زكي

مُتـــــــوَّجٌ بعيـــــــقٍ	مُفـــــــرَّطٌ بلُجْـــــــينِ
عليـــه قُرُطـــقُ وشْـــيٍ	مُشـــــمَّر الكُمـــــينِ
قـــد زيَّـــن النحـــرَ منـــه	ثنتـــــان كـــــالوردتينِ
حـــتى إذا الصـــبحُ يبـــدو	مُطـــــرَّز الطَّـــــرَّتينِ
دعـــا فـــأسمعَ منَّـــا	مَـــنْ كـــان ذا أذنـــينِ

ذلك هو الديك، أو ذلك هو مؤلف "ساعات السحر"، وقد أحسن الرسام في اختيار الديك له. فمن ذا الذي يستيقظ في هذه الساعات أو قبيل هذه الساعات إلا أن يكون ديكاً، أو يكون الدكتور أحمد زكي! غير أن الديك يستيقظ ويوقظ النائمين بصياحه، وزكي بك يستيقظ، ويصيح بصرير قلمه، ولا يقلق النائمين بهذا الصرير الموسيقى الجميل.

اعتاد صديقي الدكتور زكي بك أن يكتب مقالاته للصحف، ومحاضراته للراديو، في الساعة الثانية بعد منتصف الليل، حين يسكن كل شيء، وتنام المدينة كلها، فلا "مسموع فيها ولا مقروء"، وتهدأ الحياة من أحداثها وهمومها وأقاصيصها حتى "قصة الميكروبات" بأنواعها وأهوالها. وهو في ذلك يستوحي الجمال، ويطوف بالفكر في أجواء الخيال، ولكنه

الخيال الأصيل الذي لا تثيره – كما قال – حشيشة الليل أو حشيشة النهار!

والديك كما قال الجاحظ، فيه الشجاعة والصبر والجولان والثقافة والتسديد، وله خبرة بساعات الليل، ومقادير الزمان، وهو يقسط أصواته على ذلك تقسيطاً موزوناً لا يغادر منه شيئاً، ولا يفوته شيء.. وكذلك زكي بك يكاد يكون فوق الإسطرلاب وفوق مقادير الجزر والمد، فعلى الرغم من تعدد مشاغله، وكثرة "سلطاته العلمية" فهو يسقط جهوده وزمنه على واجباته تقسيطاً موزوناً، ويضعها بدقة في "أنابيبها"، وكأنما الحياة عنده "معمل" تخضع للتحليل والتدقيق والتقسيط.

وقد زعموا أن الديك كان له في سالف الزمان جناحان يطير بهما في الجو، وأن الغراب كان ذا جناحين كناجي الديك لا يطير بهما. وأنهما تنادما ليلة في حانة يشربان فيها، فنفد شرابهما. فقال الغراب للديك: "لو أعرتني جناحيك لأتيتك بشراب" فأعاره جناحيه، فطار بهما، ولم يرجع إليه. فأخذ الديك يصيح كل ليلة في ساعات السحر استدعاء لجناحيه من الغراب، ولكن الغراب الماكر لا يجيب الصياح، ولا يسمع النداء.

ولم يمكر أحد بالدكتور زكي بك، ولم يأخذ منه ريشة ولا قلماً ولا فكراً ولا خيالاً في تلك الليلة التي قضاها في قارب النيل منذ ثلاثين سنة مع جمع من أصدقاء اللهو والشباب حين ثقلت الظلال، واشتد الظلام وامتنع النظر.. فلماذا يصيح على الدوام؟..

إنه يصيح في الراديو، ويصيح بهؤلاء الذين قال عنهم: "هربوا من الحياة فلاحقتهم"، فهم يلاحقهم بصياحه، ويناديهم بنصائحه ليعودوا إلى الحياة ويحتملوا مشاقها بصبر وإيمان، ولا يقتلوا أنفسهم بالقلق واليأس، وحساسية النفس..!

وإذا كان الديك لم يتعلم من الغراب، ولم يأخذ منه حذره، فقد تعلم زكي بك "حكمة من حمار وجزرة". وهو أول من دافع عن دولة الحمير، دفاع حكيم خبير، في رسالة طويلة سماها "نفثة المصدور في الدفع عن الحمير". وقد هزت أريحيته لوضع الرسالة حادثة حمار حزين رآه في قرية، وقد انهال عليه صاحبه ضرباً وسباً، فكتب يدافع عنه هذا الدفاع الحار، الذي سيبقى ما بقي الليل والنهار، درساً وعبرة لمن أنكر ذكاء الحمار.

ويختلف الديك عن زكي بك بأنه لا يحب الحمار، ويشفق من نهيقه، ولا يخضم خضمه في الطعام، بل ينقر الحب نقراً ويحمله بمنقاره إلى الدجاج، فإذا ظفر بشيء من الحب وهي غائبة دعاهن إليه، وقنع منه بدون حاجته توفيراً عليهن، وهو يعمل بقول الحكيم لابنه:

"يا بني عود نفسك الإيثار ومجاهدة الشهوة، ولا تنهش نهش السباع، ولا تخضم خضم الحمير، فإن الله جعلك إنساناً، فلا تجعل نفسك بهيمة"!

وقد عرف الديك إنه مزهو بريشه وجمال شكله، وأنه كثير الحب متعدد الزوجات، ولكن زكي بك – على ما أفاء الله عليه من جمال –

يختلف عن الديك في هذه الميول، فهو قد أحب وتزوج من أحب وبقي وفيا لحبه وزوجته وأسرته. وإذا صاح يوماً في إحدى كتاباته "عطشان يا صبايا"، فإنه لا يصيح عطشاً إلى الحب، ولا غراماً بغادة الكاميليا، ولكن البحث عن حقيقة الحياة، وللكشف عن جمال الكون وأسرار الطبيعة التي يبحث عنها لا في المجمع اللغوي، ولكن في مجلس فؤاد الأول الأهلي للبحوث، الذي ننتظر منه الكثير، والكثير جداً.. إن شاء الله..!

أحمد رامي... فراشة

لا تصـدق مـا يقـول الشـعراء   فالـذي قـالوه في الحـب هبـاء

كلمـا اسـتهواهمو حسـن مضـوا   يرسـلون الشـعر فيـه والغنـاء

لا يقـرّون علـى حـب ولا   يسـتطيعون حـال بقـاء

حـبهم وقـف علـى أنفسـهم   وهـوى النـاس التفـاني والفـداء

(ابن زيدون): ما الذي تعنين؟

(ولادة): أعـني أنكـم   كفـراش الليـل تهـوون الضـياء

وكذلك الشاعر أحمد رامي – كما قالت ولادة في قصيدته "غرام الشعراء" – من فراش الليل يهوى الضياء، ويرسل الشعر والغناء، ويسبح في وجده يناجي طيف الحبيب الساري، تارة بصوت "سومة" كوكب الشرق، الذي يهيج الشجو في مسمعه، ويبعث المكنون من أدمعه، ويدب في نفسه دبيب المنى.. وأخرى وهو سهران وحده، ينظم أغانيه الشجية، والوجود نائم من حواليه، يستمع في أحلامه إليه، ويأسى عليه، وهو معذب في لواعجه، يحترق في لياليه بنوره وناره، وهو محروم من كل شيء "حتى الجفا محروم منه"، فيجري بخياله وراء الحبيب، ويناشده ويناجيه:

"تعال نسهر سوا.. يطول حديث الهوى". ولكن الحبيب لا يجيب، لأنه من نوع غريب، لعله أصم أو أبكم، أو لا يحسن ولا يفهم!

وقد يكون رامي من فراش النهار، مما يستاف بدائع الأزهار، ويستقبل الشمس في موكب الأنوار، ويهيم في الحدائق مع الأطيار، متأرجحاً بجناحيه كلما "غنى الربيع" وابتسم الكون، وطربت الحياة، وحفلت الدنيا بالآمال السعيدة، والمناظر البهيجة، والمعاني الحلوة والجمال الفتان.

والفراشة تهوى الجمال، وتتعشق النور ولو كان ناراً، وهي من أحسن الأحياء ذوقاً، وأحلاها لوناً، وأخفها ظلاً، لا ثقل فيها ولا استثقال، ولا عداء منها ولا اعتداء. وليست ضارة ولا مضرة، بل قد يثقل عليها الغير، فلا تثقله، ويعتدي عليها فلا تعتدي عليه، ويضرها فلا تضره.. وكذلك رامي منذ نشأ، يهيم في وادي الجمال، ويعيش بين رياض الخيال، ولا تطيب له الحياة إلا إذا كان بين بنات الشعر، وكواكب الغناء هائماً سعيداً تسمعه يقول:

هـــذه روضـــة وهـــذه طيـــور	تتنـــاغى وللغـــدير تحريـــر
وذكـاء عنـد الأصـيل طمـي منهـا	علـى الكـون عجـد منثـور
فتمتـع بمـا تـرى مـن جمـال السـكون	وانـس الـذي تكـن الصـدور

ولعله تأثر في ذلك بعمر الخيام منذ ترجم رباعياته في فجر شبابه سنة ١٩٢٣. فقد أرسلته دار الكتب المصرية في ذلك الحين إلى باريس لدرس اللغة الفارسية في مدرسة اللغات الشرقية، فقرأ على أساتذته في هذه اللغة كتاب ألف ليلة وليلة، وجلسمتان السعدي، وشاهنامة الفردوسي، وتاريخ سلاطين خوارزم، وتاريخ جنكيز خان. ثم وقعت له نسخة من رباعيات الخيام، فانقطع لترجمتها عن الفارسية، وصادف حين ذلك أن وصله نعي أخيه الشقيق الأكبر في دار غربة، فاستمد من حزنه عليه قوة على تصوير آلام الخيام وفلسفته في الحياة، ثم عاد إلى مصر وعادت معه شجونه فصادف أم كلثوم، وكانت قد عرفته قبل أن تراه من قصيدته: "الصب تفضحه عيونه – وتنم عن وجد شئونه" فغنتها وكان وقتئذ يدرس الفارسية بباريس. ورأته لأول مرة في حفلة أقيمت لها بحديقة الأزبكية، فأرادت أن تحييه فغنت في الوصلة الثانية هذه القصيدة، واتصل بينهما الود، وأفنى حياته في نظم أغانيها، كما تفني الفراشة حياتها في النور والنار.

واجتمع من غناء أم كلثوم وأغاني رامي ثروة فنية لهذا الجيل، امتزج فيها سحر الصوت، ببديع النظم الفصيح والدارج، وكانت من أجمل ما يترجم عن مكنونات العواطف، وخلجات النفوس.

وليس هناك من يعرف أحمد رامي إلا ويعرف فيه الرقة والصفاء، والمودة والإخاء، وحلاوة النفس، وطهارة القلب، وأنس المجلس. وهو في الشعراء أشبه بالبهاء زهير في سهولة ألفاظه، والعباس بن الأحنف في رقة

معانيه، وأبي العتاهية في زهده وتهاونه، وابن الرومي في تشاؤمه وسخطه على الدنيا وعلى وزارة المعارف التي جحدت حقه، وغبنته أيما غبن:

أيـن سـجع الهـزار مـن صـرخة البـو　　　م صراخاً يثير قلب السكون

تعبــت في الظــلام تنــذر عيشــي　　　بنصــيب المضــيّع المغبــون

والحق أن أحمد رامي مغبون في حياته الفنية، ووظيفته الحكومية، فقد استغله أهل الفن لنعيمهم وثرائهم، دون أن يكون له نصيب في هذا النعيم والثراء. واستغلته وزارة المعارف دون أن تحله المكانة التي تخصص لها، أو تفي له بما يستحق وبما أضاع فيه شبابه وحياته بباريس ودار الكتب، بل تخطته مرات ومرات، وظنت أنها تعدل حين تظلمه، وتصيب الحكمة حين تخطئ إليه، وتوفق حين تحيد عن أنصافه. وليس فيما ظلمت وأخطأت من عدالة ولا حكمة ولا توفيق.

إيبس.. أمير بقطر

أيبس عند الفراعنة القدماء، هو رمز العلم والحكمة والتفكير، وأبو قردان عند الفلاحين المصريين الآن هو صديق النباتات، وحامي الخصب والخير والبركة. يدفع عن الزرع أذى الآفات. ويعيش في الريف، ويؤثر جواره، ويتنقل من حقل إلى حقل، ومن دسكرة إلى دسكرة باحثاً منقباً، ويقف كالحارس المفكر، ساكناً كالراهب المتعبد وهو ليس بالساكن، بل ينظر بعينيه النافذتين، ويبحث في هدوء، ثم ينقض في هدوء أيضاً، ويحمي الحياة من الموت، والصحة من الداء، والإنتاج من الذبول والفناء.

وهو بالدكتور أمير بقطر أشبه، فهو عالم باحث مفكر، يدفع أذى الجهل من الجاهلين، ولكن أيبس لم يعرف الجامعات كما عرفها أمير، ولم يخرج من مصر ولم يطف بالدنيا كما طاف، ولم يتجمل بعواطف الجمال كما تجمل، ولم يتذوق جمال العلم فتنة، ومن جمال الروح سلوى. وقد قال مصعب بن الزبير: "تعلم العلم فإن لم يكن لك مال كان لك مالاً، وإن لم يكن لك جمال كان لك جمالاً"!.. وصديقي الدكتور أمير بقطر تجمل بالعلم، وأغرق في هذا التجمل حتى صار جميلاً، وقد تخرج أستاذاً في التربية، فلم يقنعه أن يكون مربياً عادياً، بل أفنى شبابه في العلم وسافر إلى أرقى الجامعات، وحصل على الدكتوراه، وتبوأ في الأوساط الجامعية الأجنبية مركزاً رفيعاً يفخر به كل مصري، وانتدب مراراً للتدريس في جامعات أميركا كما ينتدب مشاهير العلماء من أرقى الأمم.

وهو في جمال نفسه وروحه على خلق فاضل جميل، عظيم التواضع، شأن العالم الحق، كلما ازداد علماً زاد تواضعاً، وقد كان قدماء اليونان يمثلون العالم المتواضع بالغصن الممتلئ ثمراً، والجاهل المتكبر بالغصن المتجرد من الثمر، الأول ينخفض في جمال بما يثقله من خير، والآخر يرتفع في الهواء ويشمخ بلا شيء في الفضاء..!

وقد كتب كثيراً وألف كثيراً، ويمتاز في كتابته وتأليفه بالابتكار والتجديد، وله اطلاع واسع على الآراء الحديثة والثقافات الجديدة، أثرت فيما يتناول من موضوعات، وما ينشئ أو يترجم من كتب؛ فألف "الدنيا في أميركا"، و"كيف نتعلم لنعيش" و"الاتجاهات الحديثة في التربية" و"الدانيمرك ومدارسها". وترجم "لا تخف" لأشهر علماء النفس في أميركا. و"التربية في الشرق الأوسط"، و"نظام التربية في أميركا". وقد أشرف على تحرير مجلة التربية، فكانت وما زالت سفيرة الآراء الناضجة في هذا الفن.

ومع إغراق أمير بقطر في فنه ودراساته، فله إدراك دقيق عميق للحب وللجمال المادي، وله عاطفة رقيقة مرهفة منذ الصبا، حدث وهو صبي في مرحلة التعليم الثانوي أن شاهد رواية "روميو وجولييت" لأول مرة في ملهى الشيخ أحمد الشامي المتنقل، فتأثر لمصرع العاشقين، وكان مدرس الإنشاء قد كلفه بكتابة موضوع عن هذا البيت:

أرى العنقاء تكبر أن تصادا   فعاند ما استطعت له عنادا

فلم يسعه إلا أن يعبر عن حزنه وآلامه لمصرع هذين العاشقين في كراسة الإنشاء بدلاً من الكتابة في هذا البيت، فكان نصيبه التوبيخ زائداً صفراً، ولكن هذا التوبيخ وهذا الصفر لم يقتلا مشاعره الجياشة، ولا صرفاه عن الإجادة في الكتابة حتى صار كاتباً بارعاً مجدداً.

وهو صعيدي الموطن، ولكنه أقرب إلى أبناء الوجه البحري في طباعه ومزاجه؛ ففي أخلاقه إيناس ورقة ولطف، وفي طبعه إحساس مرهف كأهل دمياط. وقد امتد به الطواف في بلاد العالم حتى زار جزائر "هاواي" بالمحيط الهادي، وإذا كان قد حزن وتألم لشقاء روميو وجوليت، فقد اغتبط بما شاهد في "هونولولو" من سعادة العشاق، ووصال الأحباب، وهناء الشباب بالشباب.

وقد ولد في أسيوط، ولكنه ليس مقتراً كالأسيوطيين، فنقوده ليست له، وكلما ملأ جيبه من جهاده في الشتاء، راح في الصيف، فأضاع ما جمع في الطواف بأوربا وأميركا، مستشفياً أو مستزيداً من العلم والعرفان، وليس في الدكتور أمير بخل أو تقتير إلا على أصدقائه حتى يمنيهم بصحبته في رحلاته، وضيافته في أسفاره، ثم يخفي عنهم أوقات الأسفار، ومواعيده في المطار..!

وبين الدكتور أمير بقطر وتلاميذه بالجامعة مودة وصداقة وعطف، فهو يعاملهم معاملة الوالد المرشد العطوف، ولكنه على ما بينه وبين أبنائه وأصدقائه من رابطة ودية، وصلات تفاهم وسلام، يكاد يكون بينه وبين

الجنس اللطيف حرب وخصام، فطالما أثارهن بكتاباته القاسية، فتارة يكتب: "الرجل أجمل من المرأة". وقد تحدثه إحداهن، فبعثت له تقول: "فلنتبادل ولنجرب" وتارة يكتب: "شكوانا من المرأة". وأخرى: "لا أحب رياسة المرأة، ولا أريد أن أكون لها مرءوساً"!

على أنه أنصف المرأة حين مدحها إذا ابتسمت، وحين أسى لها إذا بكت. وبين ابتساماتها ودموعها نسب كبير، طالما تورط فيه الدكتور أمير.

بنت الشاطئ

بنت الشاطئ – وقبل ذلك كانت ابنة الشاطئ – كالبطة مائية ساحلية تهوى الأسماك، وتعيش في حجاب من اسم مستعار، منذ درجت في مدارِج العلم والأدب، ومنذ تعشقت فن الكتابة، وأخذت تساهم في الحياة العامة وتكافح في سبيل الإصلاح الاجتماعي، وتدافع عن قضية الفلاح المصري.

وقد ولدت في دمياط، فهي حضرية شاطئية وليست ريفية، ولكنها أحبت الريف، ودرست حياته، ووقفت على علله، وألفت فيه كتباً، وأطلقت صيحاتها العالية في وجوب ترقيته، ونجدة أبنائه الفلاحين المساكين، وبناته الريفيات البائسات.

ولقد ناشدت عائشة بنت عبد الرحمن الحكومة تارة، والإقطاعيين من أصحاب المزارع تارة أخرى أن يعنوا بالمنتج وهو الفلاح كما يعنون بالأرض، وكما يعنون بالمواشي، وهتفت بوجوب علاجه من أمراضه كما يعالج الإنتاج الزراعي من آفاته، ولكن هتافها طالما ذهب سدى.

"سياستنا الزراعية معكوسة الأوضاع، تعني الحكومة ويعني الإقطاعيون بالإنتاج دون المنتج": هكذا تقول بنت الشاطئ، ولقد صدقت، فنحن في مصر لا نجد إلا استغلالاً للفلاح، وإهمالاً لحياته

الصحية والاجتماعية. والحكومات والأحزاب على اختلافها سارت في هذا السبيل كالسلحفاة، لا هي نشطت لإصلاح الريف، ولا هي استجابت إلى نصيحة "البطتين" في تلك الأقصوصة العجيبة التي زعموا أنه كانت هناك عين من الماء، فيها بطتان وسلحفاة. وقد عاشت ثلاثتهم عليها. ثم أن تلك العين نقص ماؤها، فلما رأت البطتان ذلك قالتا أنه ينبغي لنا ترك ما نحن فيه، والتحول إلى غيره، فلما ودعتا السلحفاة، قالت لهما: "إنما يشتد نقصان الماء على مثلي، لأني لا أعيش إلا به فاحتالا لي واذهبا بي معكما" فقالت البطتان: "لا نستطيع تجبيبه" فقالت: "نعم، ولكن كيف السبيل إلى ما ذكرتما؟" قالت البطتان: "تمضين على وسط عود، وتأخذ كل واحدة منا بطرف، ونطير بك في الجو"، فرضيت السلحفاة، وطارتا بها فرآها الناس فقال بعضهم لبعض: "انظروا إلى العجب.. سلحفاة بين بطتين تطيران بها في الهواء!" فأجابتهم السلحفاة: "رغماً لأنفكم أيها الناس"، فسقطت على الأرض وتحطمت!

وكذلك الحكومات والإقطاعيون في مصر كهذه السلحفاة التي لم تستمع إلى النصيحة فكان جزاؤها التحطيم، ولقد ظل الفلاح يعاني هذه السياسة الزراعية الخاطئة، ويحمل شقاءها ويرزح تحت ظلمها وظلامها حتى ضجر وتهيأت نفسه للآراء الثورية. وقد سمعنا أخيراً في بعض الريف كيف هوجم بعض الإقطاعيين وخربت زراعتهم وأحرقت دورهم!

ولقد أنذرت بنت الشاطئ بهذه الحال منذ كتبت عن الريف المصري سنة ١٩٣٦، وعن قضية الفلاح سنة ١٩٣٩، وعن مأساة "سيد العزبة"،

ومنذ نالت الجائزة الأولى في المباراة الرسمية لحكومة علي ماهر باشا على موضوعها "ترقية الريف اجتماعياً"، وقد صورت حياة الفلاحين والفلاحات الجياع العراة الذين يعيشون الآن أسوأ مما كانوا يعيشون عليه في عهد الفراعنة العتاة، والمماليك الجهلة الطغاة.

وعلى الرغم من عناية "عائشة" بالريف وولعها بالدفاع عنه، فهي لا تنسى الشاطئ، وله في نفسها ذكريات لا تمحى، ذكريات جميلة، وذكريات حزينة، وذكريات شاعرة، فقد كان مدرج طفولتها، ومراح صباها، ومسرح أحلامها، ومبعث وحيها وإلهامها.. وقد شهد ذلك الشاطئ، ورأى، وسمع، شهد مصرع أم شابة، ورأى فاجعة بيت وأحزان أسرة. ولعل ما في نفس بنت الشاطئ من آلام حزينة، وما في كتابتها من لوعة وألم دفين حين تدبح مقالاتها "صور من حياتهن" يعود إلى نفسية أمها الحزينة التي أصيبت قبل ولادتها في أمها الشابة حين ذهبت إلى شاطئ النيل فسقطت فيه، ولم يعثر على جثتها، حتى أثر ذلك في نفسها، وانتقل هذا الأثر إلى "عائشة" فبقي ماثلاً فيما تصور من مآس وآلام.

وبنت الشاطئ جديرة بأن تدعى "بنت بطوطة" فقد ولعت في السنين الأخيرة بالرحلات، قامت بها صيفاً، وقامت بها شتاء، فسافرت إلى إسبانيا وفرنسا وسويسرا وإنجلترا وإيطاليا والنمسا، ورحلت إلى الحجاز وجزيرة العرب، ورأت وسمعت وكتبت عما شاهدت، ونافست ابن بطوطة في رحلاته وكتاباته، وإن لم تر مثله الهند والسند والصين وما فيها من عجائب العادات وغرائب المخلوقات.

وقد أوذيت "عائشة" وصبرت، وجاهدت وظفرت، وكانت في حياتها عصامية على رغم الشدائد والعقبات، وقد جمعت عدة مواهب، فهي أديبة بارعة، وباحثة محققة، وقصاصة مبدعة، وزوجة شرقية فاضلة، وربة أسرة محافظة، وهي من "الأمناء" الذين آمنوا بأستاذهم "الأمين" وعاهدوه على خدمة الأب للأدب، والعلم للعلم، والحياة الإنسانية لا عند أبي العلاء وحده، بل عند جميع الأدباء وعند جميع الطوائف والشعوب.

أمينة السعيد

أمينة السعيد، أو زرقاء اليمامة، أو عرافة المصور، أو اسألوني.. تلك كلها أعلام على شخصية لطيفة واحدة، امتازت بالنظرة النافذة، والرأي الثاقب، وكان لها من دراستها للمجتمع ما ليس للكثيرات والكثيرين فإذا سئلت، فجوابها عن دراية ورشاد، وإذا كتبت، فعن دراسة وسداد.

وقد درست أمينة السعيد في الجامعة، وحصلت على ليسانس الآداب، ولكن دراستها للحياة الاجتماعية وخبرتها بالمجتمع وأحواله أعظم وأكثر تجارب ودروساً، وقد طافت بأكثر نواحيه، واختبرت جمعياته ونواديه، وعرفت ما فيها من مساوئ ومتاعب، وما يشكوه الفرد والجماعة من آلام ومصاعب. فإذا جلست تقول: "اسألوني" أو "نبين زين"!. أقبل عليها المئات والآلاف يسألونها في شئونهم الاجتماعية، فتجيبهم بما لا تسمو إليه في صدقها حذام بنت الريان التي قال فيها الشاعر:

إذا قالــت حــذام فصــدقوها فــإن القـول مـا قالـت حـذام

وهي تسبق في نظرها البعيد زرقاء اليمامة، فقد قالوا "أبصر من الزرقاء"، وهو مثل لجودة البصر، وحدة الرأي والنظر، وكانت تبصر الشيء من مسيرة ثلاثة أيام، أما أمينة السعيد، فهي ترى الشيء من ثلاث

سنوات أو تزيد ، وقد نزعم أنه لو عاش النابغة الذبياني لقال فيها هذه الأبيات:

فاحكم كحكم فتاة الحي إذا نظرت ... إلى حمــام شــراع وأراد الثمــد

قالــت ألا ليتمــا هــذا الحمــام لنــا ... إلى حمامتنـــا أو نصـــفه فقـــد

فحســبوه فــألفوه كمــا حســبت ... تسعاً وتسعين لم تنقص ولم تزد

فأكملـــت مائـــة فيهـــا حمامتهـــا ... وأسرعت حسبة في ذلك العدد

فقد زعموا أن زرقاء اليمامة – وهي من قبيلة جديس بين نجد واليمن – كانت جالسة في جوار جبل، فمر بها سرب من القطا، فقالت: "يا ليت ذا القطا ليه.. ومثل نصفه معه.. إلى قطأة أهليه.. إذن لنا قطا ميه". ولما قتلت قبيلة جديس قبيلة طسم هرب رجل منها إلى حسان تبع ملك حمير، فأغراه واستجأشه، فجرج في جيش جرار يريد الانتقام من جديس، فلما كان من اليمامة على مسيرة ثلاثة أيام صعدت الزرقاء سطح دارها، فرأت جيش حسان. وقد حمل كل جندي منه شجرة يستتر بها، فقالت الزرقاء: "يا قوم قد أتتكم الشجر"، فلم يصدقوها، فقالت: "أحلف الله لقد رأيت رجلاً ينهش كتفاً، أو يخصف نعلاً"، فلم يصدقوها ولم يستعدوا حتى فاجأهم حسان بجيشه فاجتاحهم.

وزرقاء اليمامة من بلدة مسيلمة الكذاب، أما أمينة السعيد، فمن مدينة الذئاب، ولا نعني أنها ولدت في أسيوط، ولكنها قضت فيها

السنوات الأولى من حياتها، وقد قال علماء التربية أن هذه المرحلة من العمر هي أطبع المراحل للصفات والأخلاق. ولكن أمينة شذت عن هذه القاعدة، فلم ينطبع في نفسها ما انطبع في الأسيوطيين من التقتير الذي يفوقون فيه الدمياطيين!

وقد اختار الرسام لأمينة السعيد "اليمامة"، وهي صنف من أصناف الحمام، ويسميه العراقيون الهوادي، والمصريون اليمام، وهو طير وحشي ظريف يميل إلى العزلة، ويقطن فروع الأشجار وعروض النوافذ والديار، ويسجع في الصباح مع البلبل والعندليب والهزار.

ولعله استوحى هذا الرسم من "وحي العزلة" لأمينة السعيد، أو من "أوراق الخريف" وما فيها من وحشة ووحشية، أو من الأمطار المنهمرة على قمم الجبال العالية العاتية في شمال الهند حيث طارت أمينة السعيد إلى تلك البلاد، وشاهدت من عجائب الدنيا ودونت ما دونت من مشاهد وأفكار.

على أن أمينة السعيد ليس فيها من الوحشية ما في اليمامة، ولكن فيها من اليقظة وسرعة الخاطر ما في هذا الطائر الجميل، فقد عرفت أمينة في مراحل حياتها، بالذكاء المتوقد، والتوثب والنهوض بجنسها اللطيف إلى المستوى الاجتماعي الرفيع. وهي في المقدمة من الرعيل الأول الذي غزا كليات الجامعة وأثبت وجوده ونشاطه وتفوقه. وقد اعتصمت بجرأتها الأدبية في مناقشاتها الجامعية، فكانت أول من ناقش في قاعات الجامعة

رواية "مجنون ليلى" ولم يثنها أن يقول القائلون في ذلك الحين: "رحم الله الحياء حين يناقش النساء أشعار الحب والهيام".

وقد كانت أول من شجع الفتيات المصريات على ممارسة الألعاب الرياضية، وأول فتاة مصرية لعبت التنس في ساحة الجامعة، وأول جامعة صارعت طويلاً للدفاع عن كرامة الجنس اللطيف في التعليم الجامعي، وأول من خلعت غطاء الرأس في الجامعة، ولم تبال أن يطلق عليها الزملاء "أم الشعور"! وأمينة السعيد كاليمامة نحو أولادها تبني لهم عشاً أميناً، ترعاهم وتسعى جاهدة في سبيل سعادتهم ومستقبلهم، وهي تتكلف في ذلك كثيراً من المشقة والصحة. تدفعها تلك العاطفة النبيلة، عاطفة التضحية والإيثار، فلم يقعدها الكسل الذي يقعد الكثيرات عن تحسين حياتها والمساهمة في الخدمات العلمية والاجتماعية، فهي في المقدمة من المجاهدات والرافعات لواء النهضة النسائية في مصر، وهي أمينة نحو زوجها، أمينة نحو أبنائها، أمينة نحو أمها مصر وأبيها النيل.

الفهرس